احذر مظالم الخلق

الحمد لله العليمِ الخبير، السميعِ البصير، الديانِ القدير، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له لا يُظْلَمُ العبادُ عنده مقدار قطمير، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صاحب الحوض والشفاعة، أرسله الله بالبشارة والنذارة.

كتبَ الإلهُ على المآذنِ ذِكْرهُ

فأثار حُبًّا في القلوبِ عظيمَا

أمرَ الإلهُ المؤمنينَ بقولهِ

صلُّوا عليه وسلِّموا تسليمَا

فاللهم صلِّ وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فأوصيكم ونفسي بتقوى الله :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾]الحج: 1.[

أيها الأحبة، كان رجل يتحدث عن مرض أصابه أيام كارثة الأسهم – قبل سنوات – وهو يحمد الله على هذا المرض الذي أشغله بنفسه عن مصيبة المال، يحمد الله؛ لأنه رأى صاحبه في صالة الأسهم قد خسر خسارة أزالتْ عقله، حتى إنه نُقل إلى مستشفى الصحة النفسية في الطائف المعروف بمستشفى شهار، هذا إفلاس دنيوي، فماذا عن الإفلاس الأخروي؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "أَتَدْرُونَ ما المُفْلِسُ؟ قالوا: المُفْلِسُ فِينا مَن لا دِرْهَمَ له ولا مَتاعَ، فقالَ: إنَّ المُفْلِسَ مِن أُمَّتِي يَأْتِي يَومَ القِيامَةِ بصَلاةٍ، وصِيامٍ، وزَكاةٍ، ويَأْتِي قدْ شَتَمَ هذا، وقَذَفَ هذا، وأَكَلَ مالَ هذا، وسَفَكَ دَمَ هذا، وضَرَبَ هذا، فيُعْطَى هذا مِن حَسَناتِهِ، وهذا مِن حَسَناتِهِ، فإنْ فَنِيَتْ حَسَناتُهُ قَبْلَ أنْ يُقْضَى ما عليه أُخِذَ مِن خَطاياهُمْ فَطُرِحَتْ عليه، ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ"؛ رواه مسلم.

في هذا الحَديثِ: بيانُ مَعنى الْمُفلِسِ الحقيقيِّ، وهو مَنْ أخَذَ غُرماؤُه أعمالَه الصَّالحةَ.

وفي هذا الحديث: أنَّ القِصاصَ قد يأتي على جميعِ الحسناتِ، حتَّى لا يُبقي منها شيئًا، والعياذ بالله.

عباد الله، حقوق العباد خطيرة جدًّا؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ اليَوْمَ، قَبْلَ أَلاَ يَكُونَ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ"؛ أخرجه البخاري.

إخوة الإسلام، تتنوع المظالم؛ قال ابن رجب: "والظلم المحرم: تارة يكون في النفوس، وأشده في الدماء، وتارة في الأموال، وتارة في الأعراض"؛ ا.هـ.

عباد الله، حق المظلوم لا يسقط بمجرد توبة الظالم، بل لا بد من التحلل من المظلوم، وقد يعاقب المسلم بظلمه لكافرٍ أو حيوان، وفي صحيح مسلم: "وَعُرِضَتْ عَلَيَّ النَّارُ، فَرَأَيْتُ فِيهَا امْرَأَةً مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ تُعَذَّبُ في هِرَّةٍ لَهَا، رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِن خَشَاشِ الأَرْضِ"، وفي صحيح البخاري مرفوعًا: "مَن قَتَلَ مُعاهَدًا لَمْ يَرِحْ رائِحَةَ الجَنَّةِ، وإنَّ رِيحَها تُوجَدُ مِن مَسِيرَةِ أرْبَعِينَ عامًا."

وقد جاء في حديث القصاص الذي ركب فيه جابر بن عبدالله رضي الله عنه إلى عبدالله بن أنيس رضي الله عنهم إلى الشام شهرًا حتى شافهه به وفيه: "يَحْشُرُ اللهُ الْعِبَادَ، وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ قِبَلَ الشَّامِ، عُرَاةً حُفَاةً غُرْلًا بُهْمًا، قَالَ: قُلْتُ: مَا بُهْمًا؟، قَالَ: لَيْسَ مَعَهُمْ شيء وَيُنَادِي مُنَادٍ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ: أَنَا الْمَلِكُ الدَّيَّانُ، لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، وَأَحَدٌ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَطْلُبُهُ بِمَظْلَمَةٍ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَدْخُلُ النَّارَ وَأَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَطْلُبُهُ بِمَظْلَمَةٍ، حَتَّى اللَّطْمَةِ، قَالَ: قُلْتُ: وَكَيْفَ وَإِنَّمَا نَأْتِي عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا؟ قَالَ: الْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ"؛ رواه أحمد وصححه الألباني.

ولذا فعلى المسلم أن يرد المظالم إما مباشرة أو يوصي حكيمًا ليردَّ مظلمته إلى المظلوم، ويسأله العفو، وإن لم يتمكن التائب من التحلل من المظلوم – كعدم معرفة صاحب الحق أو موته – فعليه أن يفعل مع المظلوم حسنات كالدعاء له، والاستغفار له، والصدقة عنه.

ومَن قذف مسلمًا أو مسلمة في الدنيا، ولم يُقَمْ عليه حدُّ القذف، جوزي في الآخرة؛ فعَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ: صَنَعَ رَجُلٌ لِابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما طَعَامًا, فَبَيْنَمَا الْجَارِيَةُ تَعْمَلُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ إِذْ قَالَ لَهَا الرَّجُلُ: يَا زَانِيَةُ، فَقَالَ: ابْنُ عَبَّاسٍ: مَهْ إِنْ لَمْ تَحُدَّكَ فِي الدُّنْيَا تَحُدُّكَ فِي الْآخِرَةِ"؛ صححه الألباني.

وفضائل الأعمال كالصلاة والصيام والحج وغيرها، لا تكفر إلا الصغائر عند جمهور أهل العلم، وتكفر حقوق الله فقط، أما المعاصي المتعلقة بحقوق العباد، فإنها لا تُكَفَّر إلا بالتوبة منها، ومن شروط التوبة منها: رَدُّ المظلم إلى أهلها؛ نفعني الله وإياكم بالكتاب والسنة، وبما فيهما من الهدى والحكمة، واستغفروا الله إنه كان غفارًا.

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على نبيه وعبده وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فإن حقوق العباد عظيمة وخطيرة وفي الحديث: (يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ إِلا الدَّيْنَ)؛ رواه مسلم، فتصور أن الشهادة تكفر شرب الخمر والزنا وغيرها، ولا تكفِّر حقوق الناس!

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: افْتَتَحْنَا خَيْبَرَ، ولَمْ نَغْنَمْ ذَهَبًا ولَا فِضَّةً، إنَّما غَنِمْنَا البَقَرَ والإبِلَ والمَتَاعَ والحَوَائِطَ، ثُمَّ انْصَرَفْنَا مع رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى وادِي القُرَى، ومعهُ عَبْدٌ له يُقَالُ له مِدْعَمٌ، أهْدَاهُ له أحَدُ بَنِي الضِّبَابِ، فَبيْنَما هو يَحُطُّ رَحْلَ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذْ جَاءَهُ سَهْمٌ عَائِرٌ، حتَّى أصَابَ ذلكَ العَبْدَ، فَقَالَ النَّاسُ: هَنِيئًا له الشَّهَادَةُ، فَقَالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: بَلْ، والذي نَفْسِي بيَدِهِ، إنَّ الشَّمْلَةَ الَّتي أصَابَهَا يَومَ خَيْبَرَ مِنَ المَغَانِمِ، لَمْ تُصِبْهَا المَقَاسِمُ، لَتَشْتَعِلُ عليه نَارًا فَجَاءَ رَجُلٌ حِينَ سَمِعَ ذلكَ مِنَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بشِرَاكٍ أوْ بشِرَاكَيْنِ، فَقَالَ: هذا شيءٌ كُنْتُ أصَبْتُهُ، فَقَالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: شِرَاكٌ – أوْ شِرَاكَانِ – مِن نَارٍ."

عباد الله، مظالم الخلق شأنها عظيم، قال الطبري: عند قول الله :﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ *وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ *وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ [عبس: 34 – 36]، قال" :حذرًا من مطالبتهم إياه بما بينه وبينهم من التَّبعات والمظالم."

بل تأمَّل كيف أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن عدل الله التام؛ كما في الحديث: "لَتُؤَدُّنَّ الحُقُوقَ إلى أهْلِها يَومَ القِيامَةِ، حتَّى يُقادَ لِلشاةِ الجَلْحاءِ مِنَ الشَّاةِ القَرْناءِ"؛ رواه مسلم.

فإذا كان هذا حال البهائم، فكيف بالمكلفين؟ !وفي حديث آخر: "يُحشرُ الخلائقُ كلُّهم يومَ القيامةِ، والبهائمُ والدوابُّ والطيرُ، وكلُّ شيءٍ، فيبلغُ من عدلِ اللهِ أن يأخذَ للجمَّاءِ من القرْناءِ، ثم يقول: كوني ترابًا فذلك حين يقول الكافرُ: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا"؛ (السلسلة الصحيحة للألباني).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم :﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: 47]، ثم صلُّوا وسلِّمُوا.